



مذريع

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5723) السنة الثانية والعشرون - الأربعاء (7) آب 2024

مذريع
m a n a r a t

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون

بليز پاسكال

خواطر بليز باسكال: كل شيء واحد.. وكل شيء متنوع

علي حسين

د

من مجرد صبي يجلس في زاوية من زوايا البيت يقرأ ويطل النظر في مجلات وكتب مصورة، لشاب يجلس إلى جوار فؤاد التكرلي ويتحاور مع غالب هلسا، ويستمتع بانتباه شديد إلى ما يقوله عبد الرحمن منيف، ويستشير علي جواد الطاهر في كتب التراث، هكذا عملت في مكتبة، وبقيت فيها لأكثر من عشرين عاماً.. لأكون دقيقاً كنت أعمل في الساعات التي يسمح بها الوقت، بعد ان أنتهي من اليوم الدراسي. في كل يوم أوجب أرفف المكتبة، افتش عن الكتب التي وصلت حديثاً، أو أبحث عن كتاب سمعت عنه من أحد الزبائن، أو ألبى طلب زبون متشوق لقراءة كتاب، واثناء هذا التجوال اليومي كنت اسمع بأسماء العديد من الكُتاب الذين لم أعرف عنهم شيئاً من قبل. واصبحت أيضاً أكثر دراية بنوعيات الكتب، وبخفايا حياة الكُتاب.. لم تعد الروايات بالنسبة لي هي الكتب الوحيدة المفضلة، بل أيضاً كتب الفن والسياسة وإضيف لها كتب الفلسفة وعلم النفس والاقتصاد. وكنت أحاول أن اتعلم كل ما احتاجه لأبدو للزبون على دراية بالكتاب الذي يسألني عنه. تعلمت الاسماء والعناوين الغريبة.

د

كانت المكتبة بالنسبة لي مدرسة للتعليم والتثقيف.. واثناء اسئلة الزبائن كنت انظر بعطف إلى أولئك الكُتاب الذين لا تباغ أعمالهم.. فهناك كتب لا أحد يريد شرائها رغم أهميتها، ومنها سلسلة بعنوان "مجموعة الروائع الانسانية"، كانت تصدر في بيروت عن اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، كان الزبائن يهتمون باعترافات جان جاك روسو التي صدرت ضمن السلسلة بترجمة خليل رامز سركيس، لكنهم يهملون كتابه "هو اجس المتنزه المنفرد بنفسه"، ولا يلتفتون إلى كتابه الأخر "اصل التفاوت بين الناس"، والقليل منهم يستهوهم كتابه العقد الاجتماعي.. بالنسبة لي كان منظر هذه الكتب يشعري بالسعادة وكنت افكر إذا كانت هذه الكتب قابلة للقراءة ام لا، ففكرت ان اضحي ذات يوم بالمبلغ الذي اتقاضاه كل اسبوع مقابل ان احصل معي هذه السلسلة الى البيت. لمدة شهرين تفرغت لقراءة اعترافات روسو، وخواطر باسكال، وقدر فولتير، وتقسيم العمل الاجتماعي لدوركهايم، وفي الحكم المدني لجون لوك، وتأملات ديكارت.. كنت اقرأ بشراهة، واحاول ان افهم. انتهيت من الكتب لكنني لم اتشربها جيداً. ايقنت انني فشلت في التعرف على خباياها. وجدت اعترافات روسو

مؤثرة جداً، لكن خواطر باسكال كانت نوعاً غريباً من الكتب لم يكن مألوفاً لدي من قبل.

عندما كان هرمان هسه يعمل في مكتبة كان يقول للزبائن ان الكتب مثل الاصدقاء، علينا ان نحكم عليها بعد ان نعاشرها بصورة حقيقية، اما الحديث عنها دون معرفة فهي اشبه بنميمة بغيضة. فيما بعد ستعلمني الصداقة الحقيقية لروسو وباسكال وفولتير وديكارت، كيف يكون الانسان انساناً ويظفر بإنسانيته، ويؤدي ادواره ويتحمل مسؤوليته. ما الشيء الذي يهيم القارئ في الفلسفة؟ يجيب بليز باسكال: "إن الشيء الهام ليس تلبية فضول تأملي عقيم، بل معرفة أخلاق موثوقة تسمح لنا بتنظيم حياتنا في أمان". كنت قد قرأت منذ سنوات عبارة للفيلسوف الألماني "بيتر سلوتردايك" يقول فيها: "بينما يحاول ديكارت مخاطبة قرائه بمزاج صباحي وانطلاقات مبرمجة، فان باسكال هو كاتب القراءة الليلية والمتواطئ مع اجترارنا للأفكار المحطمة بشكل جوهري".

عندما توفي في التاسع عشر من آب عام ١٦٦٢، تم العثور في داخل معطفه على اوراق حرص ان يخيطها داخل بطانة المعطف، وكانت هذه الصفحات تشكل الجزء الأكبر من كتابه "خواطر" الذي نشر بعد وفاته بسبعة اعوام. قبل وفاته بايام قال لأحد معارفه ان فلسفة ديكارت مدهشة ومؤثرة، لكن صاحبها متكبر صغير مضحك. يستهل باسكال كتابه "خواطر" بالقول: "من هزأ بالفلسفة فقد تقلس حقاً". قال عنه والده: "منذ أن أصبح قادراً على الكلام بدت

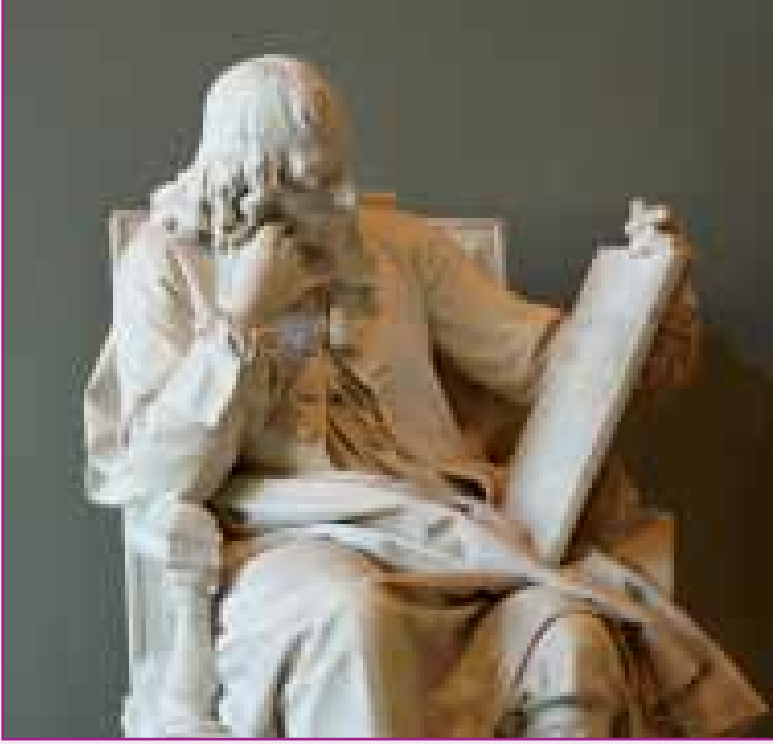
عليه بوادر الذكاء النادر". ولد بليز بسكال في التاسع عشر من حزيران عام ١٦٢٣ لعائلة يعمل معظم ابنائها في سلك القضاء او العمل في التجارة، توفيت والدته وهو في الثالثة من عمره، فتفرغ الاب الذي كان شغوفاً بالرياضيات ويعمل قاضياً في مدينة روان لرعاية ابنه الذي قال عنه كانت الكلمات تأتيه من تلقاء نفسه، عام ١٦٣١ قدم الاب استقالته من وظيفته لينتقل بعائلته الى باريس، حيث تبدأ مرحلة جديدة في حياة الصبي البالغ من العمر ثمانين سنواً تفرغ خلالها تنفيذاً لاوامر والده بتعلم اللغتين اليونانية واللاتينية، من اجل ان يقرأ كتب ارسطو. وستكتب شقيقته جاكلين: "لم يلتحق ابي بأي مدرسة، لقد علمه ابي ولقنه منهجا استعان به في حياته". يشير باسكال الى ذلك في كتابه خواطر: "تلقيت تربية تميزت بانتفاع طريقة الوسط العدل، ومزايا كثيرة ومتفردة، وعناية اكثر من ابوية"، في العاشرة من عمره استطاع بليز بسكال ان يتوصل الى معرفة ٣٢ مسألة من كتاب اقليدس في الهندسة، وفي الثانية عشر من عمره سيخبر والده انه قرأ في الخفاء الكتب الستة الاولى لاقليدس، ولما بلغ السادسة عشر من عمره وضع كتاباً في الهندسة اثار اعجاب رينيه ديكارت الذي كان يكبره بسبعة وعشرين عاماً، فاعتقد ان والد بسكال هو من كتبه. فيما بعد سيرقد ديكارت بعقريه باسكال ليكتب الى بيير مرسين: "نادراً ما وجدت الرياضيات قوة في البحث مماثلة لما فعله طفل لم يتجاوز السادسة عشر من عمره".

في تلك الفترة توجه الى دراسة الفيزياء والمنطق



والفلسفة، وكان والده يعمل محاسباً ويجد في بعض الاوقات مشقة في جمع الارقام وتنظيمها، فقام الفتى بليز باختراع آلة حاسبة تجري ايه عملية حسابية. في الثامنة عشرة من عمره بدت عليه اولى مظاهر الضعف الجسدي وسيتعرض باسكال الى تجربة مثيرة في العشرين من عمره حيث اصيب بكسر في الساق، فتولى علاجه طبيب كان يعتنق مذهب جانسينيوس، وهو مذهب يقترب من الصوفية المسيحية، في شبابه سعى باسكال الى وضع الاسلوب الاختباري من اجل اصلاح طريقة ديكارت النظرية، فديكارت يعتقد ان التفكير المنظم يقود الى المعرفة المثلى وان العلم الرياضي هو مفتاح العالم. اما باسكال فيرى ان الحقيقة تتعدى شتى جوانب عقلنا القاصر وانه يتحتم علينا ان نتوجه دوماً الى الطبيعة ونستنطقها، فنعيش تجربة الاختبار. وهكذا فان باسكال بعد ان يرفض اخضاع التفكير الى السلطة الدينية، وبعد ان يسخر من نفوذ القديس وسلطتهم، نراه يقف امام حوادث الكون المختلفة يناقشها استناداً الى اسرار الطبيعة وقوانينها. وبهذا يعارض ارسطو وتلامذته ويخالف ديكارت الذي يريد ان يقيم فلسفته على مجرد التفكير، وبرغم ان باسكال كان متديناً إلا انه اثار الكثير من المناقشات التي ازعجت الكنيسة حيث طالب بان يشارك عامة الناس بمناقشة المسائل الدينية حتى الصعبة منها مؤمناً ان العقل الانساني يستطيع بحث معظم المشاكل الدينية. وبهذا كانت افكاره تمهد لظهور فلسفة فولتير.. توفي باسكال وهو في التاسعة والثلاثين من عمره، وقد اصيب بمرض سرطان المعدة.

بليز باسكال.. العبقرية المرعبة



حسونة المصباحي

"العبقرية المُرعبة"، هكذا وصف شاتوبريان بليز باسكال (١٦٢٣-١٦٦٢) الذي لا يزال حاضراً بقوة مرجعاً أساسياً في الفلسفة المسيحية، والفلسفة الغربية بصفة عامة. ولا تزال مؤلفاته تدرّس في المعاهد والجامعات. كان بليز باسكال لا يزال صبياً لما لفت أنظار الناس إلى نبوغه. فسعى والده الذي كان يدرك أن ابنه (عبقري)، ليوفر له ما يمكن أن ينمي ذكاءه وملكانته الخارقة. كان الطفل شبيهاً بـ (بركان) لا يهدأ. ولم يكن يتحمل رؤية الماء. وحين يراه، تصبح هيئته أقرب إلى مجنون. وكان يعاني من الأرق، ومن نوبات عصبية حادة لم يتمكن أكبر الأطباء من تشخيص أسبابها، لكنه لم يلبث أن تعافى. وفي طفولته كان بليز مغرماً بالرياضيات، وفيها يأتي بالعجائب التي تدعش والده، وعندما بلغ السادسة عشرة من عمره، أصدر بحثاً حول المخروطيات الشكل، حاول فيه أن يعالج مسائل رياضية معقدة. وعند اطلاعه عليه أصيب ديكارت بالذهول، ظاناً أن الأب هو الذي ألف البحث. وبرغم أن بحثه هذا لم يحظ بأي نجاح، فإن بليز باسكال واصل أبحاثه في الرياضيات بشكل مثير، أتيا بالعجائب في كل مرة. وعندما اكتشف الضغط الجوي، كتب يقول: "الطبيعة لا تتحمل الفراغ". وبذلك أصبح عالماً مهّاب الجانب وهو دون سن العشرين. وفي عام ١٦٤٦، انكسرت ساق والد باسكال. وخلال الأشهر الثلاثة التي أمضاها في المستشفى، قرأ مؤلفات دينية عميقة حول قضايا المسيحية. وبعد شفائه، قدم لابنه النابغة تلك المؤلفات طالباً منه بإلحاح التعمق في قراءتها. وأثناء قراءته لتلك المؤلفات، بدأ باسكال يشعر أن على الناس أن يفهموا المسيحية من داخلها. وهكذا اندفع من جديد في البحث والقراءة، مسجلاً خواطره بشكل يوميٍ مثلما هي عادته. ولأن أمراضاً مختلفة عادت تؤرقه وتعذب روحه، وجسده، فإن باسكال لزم البيت لا يبرحه أبداً. وبذلك أنهى التواصل بالعالم الخارجي وهو في الثالثة والعشرين من عمره. وكان يقتصر على شرب السوائل. أما الأطعمة فقد كان يتقيها حال دخولها إلى بطنه. مع ذلك لم يكن يشتكي، ولم يكن يتذمّر، مفضلاً أن يتألم، وأن يتعذب في صمته. وحين تشبّد الألم، كان باسكال يرفع يده إلى السماء، متضرعاً إلى الله، طالباً غفرانه ورحمته. وفي دفتره، كتب يقول: "عليّ أن أنسى العالم، وكل شيء إلا الله". ولما دخلت أخته جيلبرت، التي كان يحبها حباً شديداً، دير الراهبات، انفجر باكياً من فرط السعادة. وبعد أن انشغل بالعلوم، والقضايا التقنية، ركز باسكال جهوده وأبحاثه على القضايا الفلسفية. وسرعان ما برع فيها ليصبح مسومع الكلمة في الأوساط الفلسفية الراقية. وقد أتاح له مؤلفه الأول الذي حمل عنوان: "الأبرشيّات" الحصول على نجاح متقطع النظير في المجال الفلسفي إذ تهافت الناس على شرائه ليبيع منه أزيد من عشرة آلاف نسخة. ظل باسكال يصارع الأمراض التي تكالبت عليه، رافعاً يديه إلى السماء، ومطلقاً الصلوات الحارة. وبين وقت وآخر، يسجل في دفتره ما يرد عليه من أفكار ومن خواطر. ليضمها في ما بعد كتابه الفلسفي الشهير: "أفكار" الذي لا يزال إلى حد هذه الساعة واحداً من تلك المؤلفات التي يجد فيها القراء ما يساعدهم على مواجهة ألغاز الحياة والوجود. وقد توفي بليز باسكال وهو في التاسعة والثلاثين من عمره.

عن الاتحاد الاماراتية

هل كتاب "خواطر" دعوة للايمان...؟ يؤكد باسكال ان الانسان عاجز عن ان يمنح لنفسه الايمان، لكن هناك وسيلة عن طريق اعداد نفسه، وان فعل ذلك فان الله سيمنحه الايمان الذي يبحث عنه. إلا هذا الايمان يحتاج الى التدعيم العقلي: إذ لم يفعل المرء شيئاً سوى ما هو مؤكد ويقيني، فانه ينبغي أن لا يفعل شيئاً للدين - خواطر -

ان العقل عند باسكال قابلاً لأن يميل إلى كل جانب، ولهذا نحن نرى الناس كثيراً ما لا يؤمنون إلا بما يحبون، فالقلب والعقل متباينان: "عنتا يحاول العقل زعزعة المبادئ بالاستدلال، فإنها خارجة عن دائرته ولا شأن له فيها، من المضحك أن يطلب العقل إلى القلب الأدلة على مبادئه، كما أن من المضحك أن يطلب القلب إلى العقل الشعور بالقضايا التي يستنبطها" - خواطر -

ذلك هو المذهب الذي ينادي به، فيه شيء الوجودية الدينية التي ظهرت فيما بعد بكتابات كيركغارد الذي اخذ من باسكال اختيارات الذات القلقة والوجدان المضطرب، وفي كتاب "خواطر" اشارات الى مجموعة من المفاهيم الوجودية كالخوف، والحيرة، والتشاؤم، والقلق. فالإنسان يعيش حالة من التناقض بين واقع مؤلم، محير مقلق، وبين مثالية عالية يتمناها فهو يامل في الوصول الى الحقيقة، لكنه لا يدرك غير الخطأ. ويرغب في الحصول على السعادة، ولا يجني غير الشقاء والملل وينشد العدالة الحقيقية، ولا يجد سوى عدالة مزيفة. ولهذا يعيش في حيرة متناهية: "ها هو الغموض الذي احسه، ويجعلني اضرب، انه يكفني من كل جهة، ان وجه الطبيعة امامي ما هو إلا مادة للثقل والقلق، ويبدو انني لم ار علامة على الألوهية ولو انني وجدت لها مكان قد هذا إيماني... ولكم تمنيت مائة مرة ان تشير هذه العلامات على الألوهية لانها تدل عليها. ومتى تهدأ حيرتي وانا اجهل من انا، وما الذي افعله وما هو مصيري، وواجبي؟ يحاول قلبي تلمس طريق الخير الحقيقي، لكن ليس ثمة طريق عسير في بلوغ الابدية" - خواطر -

يؤكد باسكال اننا لا نستطيع ان نحظى بالسلم والسعادة والحقيقة إلا بتسليم انفسنا الى قوة أعلى، وان لم نفعل ذلك فسوف نجني الاحباط والظلمة والتسويف والاضطراب، وواجبنا على من يسألون: إن كان الله حقيقياً لماذا لا يكون واضحاً بشكل أكبر؟ يرد: بدلا من الشكوى من ان الله اخفى نفسه، عليك ان تشكره لانه كشف الكثير من ذاته. بالنسبة لباسكال، الافتقار الى الايمان نوع من الكسل، انها النظرة التي اختصرها البيوت في مقدمته لـ "خواطر" وهو يصف البشر بالكسالى لانهم: "عاجزون عن الشك والايمن، وعندما يطلق الانسان العادي على نفسه صفة الشك او عدم الايمان، يكون موقفه في العادة موقفاً بسيطاً يحجب فيه نفوره الكبير من التفكير بأي شيء يمكن ان يعود عليه بنتيجة".

في واحدة من اشهر خواطره يقول باسكال: "العدل أن يتبع ما هو عادل. العدل بلا قوة عاجز. القوة بلا عدل استبداد". هكذا ينتقد باسكال فصل العدل عن القوة، وان العدل والقوة هوية واحدة. لكن القوة هي التي تنشئ العدل ليصبح العدل مثلاً أعلى لا يستطيع الاستغناء عن خدمات القوة.

اراد باسكال من خلال "خواطر" معرفة كل ما يمكن معرفته عن العالم، لكنه يقر في النهاية انه ليس بالامكان معرفة كل شيء. وهو يشير إلى ان الله يريد منا الاستخدام الأعلى للعقل كي نتصرف ونبدع في هذا العالم. وقبول ما نحن عليه ككائنات روحانية لديها تجربة بشرية.

هل يمكن ان نصف باسكال بانه فيلسوف وجودي؟ نعم بالتأكيد، فقد اهتم بالوجود الانساني وبإمكاناته، بالإضافة الى انه اهتم بإمكان ان يختار نفسه او لا يختار نفسه في حضرة الله. كما ان كتاباته تجسد الصراع الاساسي للنفس البشرية. يكتب بيتر سلوتردايك ان باسكال: "يقف على عتبة العالم الحديث كتشخصية مفتاحية مظلمة يصدها الشك وإذا كان التاريخ الفكري للقرن الماضي بمثابة عرض للظروف العيب، فإن مكان باسكال فيه سيكون مضموناً الى الابد. إنه يحتل المرتبة الاولى بين الامناء الفلاسفة في لباس الحديث" - مزجة فلسفية ترجمة جميلة حنفي :-

قال باسكال ذات مرة: "لقد بحثت عن كاتب فوجدت انساناً ولعل هذه العبارة توضح حقيقة هذا الفيلسوف الذي اراد ان يقول لنا ان عظمة البشر تكمن في مقدرتهم على إدراكك بأنهم يساهمون بالخاص.

في مقدمة الترجمة الإنكليزية لكتاب "خواطر" يكتب الشاعر ت.س. بيوت: "معظم البشر كسالى ولا مبالون وعبثيون ولديهم عواطف فاترة. وهم بالتالي عاجزون عن الشك والايمن". يكتب باسكال: يجب ان نعرف انفسنا، وإذا لم يقدنا ذلك في معرفة الحقيقة، فهو على الاقل يساعدها على تنظيم حياتنا، وليس ما هو اكثر صواباً من هذا. ما السبب في ان الاعرج لا يزعجنا، فيما العقل الاعرج يثير حفيظتنا. السبب هو ان الاعرج يعترف باننا نسير في استقامة، اما العقل الاعرج فإنه يقول باننا نحن الذين نخرج..."

بدأ بليز باسكال بكتابه "خواطر" عام ١٦٥٦، بعد ان تعرضت ابنة شقيقه الى مرض خطير في معدته، لكنها ستشفى واخبرت عنها انها ذهبت الى الكنيسة ومسحت مكان الالم بـ "الاكليل المقدس" فتم شفاؤها، وأيا كان السبب في الشفاء، إلا ان الحكاية زادت من اصرار باسكال على تاليف كتاب يتحدث فيه عن قيمة الايمان، وبيدت صفحات الكتاب اشبه بالخواطر الفلسفية والافكار سطرها على اوراق متناثرة، وفيها يدافع عن الدين في مواجهة موجة التشكيك فيه التي طبعته عصره. نشر الكتاب عام ١٦٦٩، وسنجد فيه ردوداً على منحج ديكارت في الشك، وسخرية من "مونتاني" الذي يقول عنه إنه "يعري باللامبالاة في مواجهة الخلاص". كان باسكال قد التقى ديكارت للمرة الاولى عام ١٦٤٧، الفيلسوف الكبير قد تجاوز الخمسين من عمره، فيما لم يكن باسكال قد تجاوز الخامسة والعشرين منشغلاً بتجاربه في الضغط الجوي واستخدام الباروميتر، لم يكن اللقاء ودياً، فقد ادعى ديكارت لنفسه اكتشاف ظاهرة الضغط الجوي، وهو الأمر الذي باعد بينهما وخلق حالة من العداوة. يحسب لباسكال ريادته في ابتكار المنهج التجريبي. كان ديكارت يرى ان الاستدلال السليم يقود بنفسه الى المعرفة الكاملة دون الحاجة الى اية معرفة اخرى وان العلم الرياضي هو مفتاح الكون، اما باسكال فكان يرى ان الحقيقة الواقعة تطغي على عقلنا الضعيف. ولهذا يجب علينا ان لانكف عن استجواب الطبيعة، وان التجريب هو الذي يستطيع تفسير لظواهر اكثر من العقل.

يحتوي كتاب "خواطر" على مناقشة لكثير من قناعات باسكال بالعلم والحياة والدين، لكنه يسلط الضوء اكثر على مشكلة الانسان التي يرى انها المشكلة الكبرى، فالإنسان يقف في كل مكان بين العظمة والحقارة، فهو قادر على اكتشاف عظمة الحياة، لكنه لا يعرف الطريق اليها. يرسم باسكال الانسان على انه لاعب لا يكف عن الحركة، إنه مدفوع بتصور المكاسب، لكن لا يرضيه أي مكسب، فخلخلة غريزة اللعب المضطربة يقف الخوف من العيبية إن حياته ليست إلا حركة هروب دائمة ويرى باسكال ان الانسان كائن ضعيف يحيا في صراع بين ما يشعر به من قوة وعظمة، وما يجد عليه ذاته من ضعف وضالة امام الكون اللامتناهي. وسنجد في الخواطر يسخر من نفسه او لا لأنه امضى وقتاً طويلاً في دراسة العلوم المجردة، ليتأكد له فيما بعد انها لا تصلح للانسان وان الجهل بها انفع بكثير من التعمق فيها" - خواطر ترجمة ادوار البستاني.

داخل صفحات كتاب "خواطر" يتصارع باسكال المؤمن، مع باسكال العقلاني، فهو الآن يريد ان يفصل عن باسكال المنشكك، ولهذا يقدم للقارئ أفكاراً فلسفية ذات وجهين، الأول عقلاني يناقش الحجج والبراهين والثاني متأمل وروحاني. الامر الذي يصفه الشاعر البيوت بانه محاولة لمزج أفكاره نحو الدين، بمعرفته الدنيوية. ولهذا فهو يخاطب القراء ذوي التوجهات العقلية العلمية بنفس الطريقة التي يخاطب القراء ذوي التوجهات الدينية.

ان ما يريد بيانه هو شقاء الانسان بدون الله، وفي نفس الوقت هناك عظمة هذا الانسان التي يمكن ان نستدل عليها حتى من شقائه: "فمن الذي يشعر بانه شقي لأنه ليس ملكاً إلا ذلك الذي كان ملكاً من قبل" - خواطر - إن الانسان يعرف انه شقي، وبالتالي فهو عظيم لأنه يعرف ذلك. وفضلاً عن ذلك فان باسكال يقر ان الفكر يكون عظمة الانسان: "ما الانسان إلا قصبة، والقصبة اضعف شيء في الطبيعة، لكنه قصبة مفكرة، ولا ينبغي ان يتسلخ الكون كله لسحقه. فنسمة رياح، او قطرة ماء تكفي لتدميره. لكن الكون لو سحقه سيظل اعظم نيلاً ممن يقتله، لأنه يعرف انه يموت، ويعرف ما يمتاز به الكون عليه، أما الكون فلا يعرف شيئاً عن ذلك" - خواطر -

ان الكون يحيط بالانسان من ناحية المكان، وبيئته كأنه نقطة، لكن بالفكر فإن الانسان يحيط بالكون.

خواطر باسكال حول الزمن العلمي وراحة الانسان

زهير الخويلدي

تمهيد

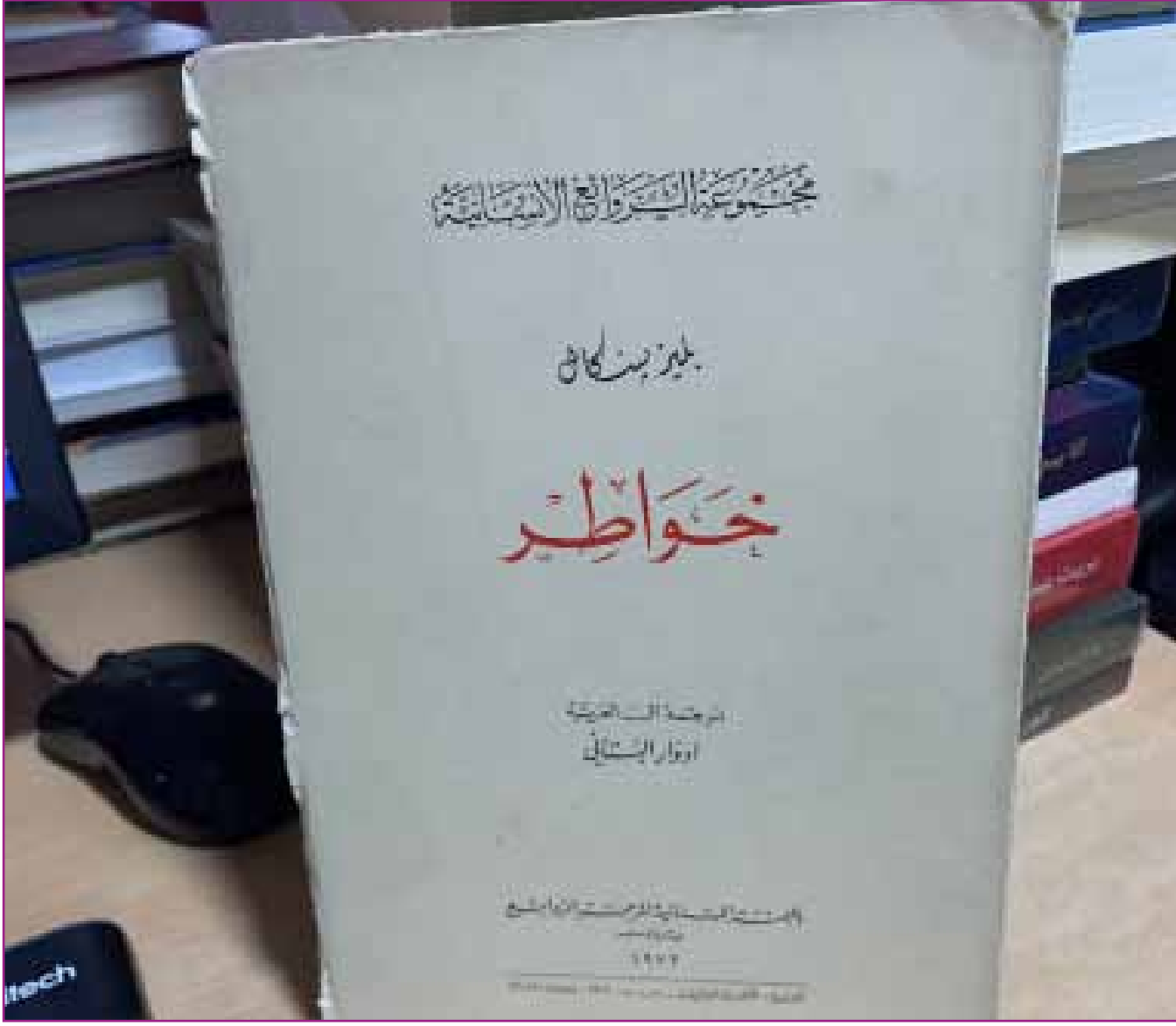
كان بليز باسكال (١٦٦٣-١٦٦٢) فيزيائياً وعالم رياضيات وفيلسوفاً ولاهوتياً فرنسياً. صاحب العبارة الشهيرة: "القلب أسبابه، والتي لا يعرفها العقل". هذا الاقتباس ليس له دلالة عاطفية على ما هو عليه الحال. يعرف باسكال، باعتباره عالماً هندسياً استثنائياً، أن كل الاستدلال يعتمد بالضرورة على مبادئ أو تعريفات أو حتى بديهيات لا يمكن إثباتها - على سبيل المثال، حقيقة أن هناك عدداً لا نهائياً من الأعداد، وأن الخط المستقيم هو دائماً أقصر طريق أو أن الفضاء يحتوي على ثلاثة أبعاد... لا يمكن أن تكون هذه الأماكن متسقة مع الحدس، ويتم استيعابها بانتظام في الصورة أو في النور الطبيعي. من وجهة النظر هذه، لا يدافع باسكال عن وجود قوة حب أو شكل من أشكال الوضوح في الشعر يسمح لنا بتحرير أنفسنا من العقل العلمي. بدلاً من ذلك، يجب أن تكون على خط خلق بين، منطقتي، والمتشككين، والنسبيين، والملحدين، وآخرين، والمتدينين والدينين العقائديين. إن الإنسان يندمج أيضاً في "فكرة متارجحة" بين الإيمان والإيمان، ويدعو دائماً إلى البقاء واعياً بحدوده. بالنسبة لباسكال، لا يمكن للعقل أن يثبت أو يؤكد وجود الله. في بداية المبادئ الأولى للهندسة، سيتم إنشاء هذا على أساس كل المعرفة؛ لقد تم إثبات ذلك قبل أن تكون شيطانياً وليس لها مهنة على الإطلاق. من وجهة النظر هذه، لا يدافع باسكال عن وجود قوة حب أو شكل من أشكال الوضوح في الشعر يسمح لنا بتحرير أنفسنا من العقل العلمي. بدلاً من ذلك، يجب أن تكون على خط خلق بين، منطقتي، والمتشككين، والنسبيين، والملحدين، وآخرين، والمتدينين والدينين العقائديين. إن الإنسان يندمج أيضاً في "فكرة متارجحة" بين الإيمان والإيمان، ويدعو دائماً إلى البقاء واعياً بحدوده. لذلك يقوم باسكال في الخواطر بالاعتذار للديانة المسيحية بهدف إقناع الملحد واللامبالين بمزاياها وبالتالي دفعهم إلى التحول. إن الأفكار ملفتة بالنظر لعمقها الفلسفي والديني وقوة أسلوبها واقناعها. لقد صرح باسكال إن السخرية من الفلسفة هي في الواقع فلسفة. طوال أعماله، يندد باسكال بالادعاءات والخيال، والترفيه والدينيوية، والحياة الحلمية والهويات الواجبة، وما إلى ذلك. وهذا يعني أي شيء من شأنه أن يبعدنا عن حقيقة الحالة الإنسانية وعن الله. إذا كان الخيال هو أصل هذه الحيل، فإن اللغة تلعب أيضاً دوراً أساسياً. السماح لك بقول كل شيء وعكسه، يمكن أن يعطي مضموناً للأكاذيب. ولهذا السبب يدين باسكال، في سلسلة كاملة من خواطره، المتحدثين الجديين (البلاغة الحقيقية تسخر من البلاغة) والأخلاق الذين يبشرون بمبدأ بينما يفعلون عكسه (الأخلاق الحقيقية تسخر من الأخلاق). يمكن أن يكون وصف نفسه بالفيلسوف أيضاً وسيلة لعرض هوية واجهة، ومنح نفسه حضوراً وعتقاً وهميين. فكما أن الملابس لا تصنع رهباناً، كما يقول المثل، فإن الفلاسفة الحقيقيين لا يحتاجون إلى ادعاء ذلك، ناهيك عن التفاخر به، ويسخرون من الأشخاص الذين يخفون فراغ أفكارهم تحت هذا اللقب. لكن ما الفرق في فلسفة باسكال بين العقل والقلب وبين العلم والعاطفة؟ وماهي علاقة الإنسان بالزمن؟ هل هناك زمن خاص بالعمل وزمن خاص بالترفيه؟ ولماذا يحتاج كل امرئ إلى الترفيه؟ وكيف يمكن تحقيقه؟

عناصر فلسفته

لا يمكن أن نعد باسكال انسان الراحة الداخلية، ولا يمكننا أن ننسب إليه اليقين السلمي لمن وجد. بل هو الذي يتساءل عن الأشياء دائماً. لا يعني ذلك أن إيمانه متذبذب أو هش؛ فهو يريد أن تتعمق اكتشافات القلب والعقل باستمرار وفي جهد متجدد باستمرار. ولا يعني ذلك أن القلق من سمات طبيعته أيضاً؛ فالسبب الوحيد للقلق لديه هو رؤية الآخرين لا يراهنون معه. لذلك يجب علينا أن نتخلى عن صورة "العبقري المخيف"، وكذلك صورة العقل الذي يحمل الحقيقة دون دعم التناقض. لا قلق ولا استرضاء، بل كلاهما اجتماعاً فيه ولا ينفصلان.

هذا التعارض بين حالتين متناقضتين ظاهرياً يترجم بالنسبة لباسكال إلى نفاذ الصبر. قالت شقيقته جليبرت: "إن حيوية عقله الشديدة جعلته ينفذ صبره أحياناً لدرجة أنه كان من الصعب إرضائه." ولكن ما نفاذ الصبر؟ ولعل ذلك الذي يولد من الوعي بأن وقته محسوب وأنه يجب أن يمضي سريعاً. ومن هنا هذه الحمى الإبداعية التي تجعله ينهمك بلهفة في الرياضيات، والتي بمجرد طرح الحلول لها، تدفعه إلى اللجوء إلى مشاريع أخرى. التسرع، والقسوة في العمل، وإهدار الطاقة، وأحياناً العنف؛ يحمل باسكال أيضاً في داخله حماسة الشباب، مع ما ينطوي عليه من فخر وسرور، وسخرية، وحتى

وقاحة؛ فهو فخور بحدسه العلمي، ولا يكره الترفيه، ويتعامل أتباعه مع السخرية بطريقة تجعل المرء يشعر بالرضا عندما يتمكن من وضع فن متفوق في خدمة شغف مبرر. ثم تمر السنين ويتفاقم المرض. بعد المحاولات الأولى التي كانت بمثابة ضربات عبقرية، وبعد ساعات من التقاعد في بورت رويال، يفكر المنعزل في مشاريعه الأكبر؛ يجب ألا يفيد "تحوله" وحده، حيث أصبح مصير العالم موضع تساؤل. هذه إذن حزم الاعتذار المشطوبة، وهي الشهادة الأخيرة لرجل، على عتية الموت، يريد مساعدة الفاجر، هذا الآخر، على إنقاذ نفسه. إن الإلحاد يدل على قوة العقل، ولكن إلى درجة



معينة فقط. إن عذاب باسكال الوحيد هو أن نلاحظ في قلب قرنه انتصار العقلانية المنتصرة، التي بثقتها في يقينيات العلم وتقدمه، تخلق شيئاً فشيئاً عالماً خالياً من الله. لم يعد المتحرر يؤمن بالنظام المغلق والمطمئن لفكر العصور الوسطى؛ إنه يرفض الكون الذي ترك فيه الله بصمته، ويكتفي بالتأكيد الهادئ على أن الإنسان سيرفع كيفية حل جميع الألغاز. هذا السبات الفخور وهذا الأمان المتغطرس هو ما يعتبره باسكال أمراً لا يطاق. ستكون الحركة الأولى للاعتذار هي الرغبة في زعزعة طمانينة غير المؤمنين الخادعة، وإرباك هذا الخليع الذي يستغني عن الإلهي وينسى فضيحة الصليب. يأخذ باسكال خطته على محمل الجد لأنه ربما يهاجم جزءاً من الإنسان الذي كان عليه من قبل؛ ستكون فعالية خطابه وأصوله التربوية أكثر تأكيداً عندما ينخرط في قتال مع خصم يعرفه للحظة مثل نفسه. وهكذا فهو يسعى إلى إرباك محاوره من خلال إظهار دوار الخلق له، وعجز الكائن الذي تضله قوى خادعة، ويتأرجح بين لا نهائيتين، بينما يجد العقل نفسه عاجزاً. الإنسان، هذا "العدم بالنسبة إلى اللامتناهي"، هو "مجرد تمويه، مجرد كذب ونفاق، سواء في نفسه أو فيما يتعلق بالآخرين"، فريسة "للتقلب"، "للضجر"، "للقلق". يُشرك باسكال المتحرر في طريق التساؤل والألم، ويجبره على الاعتقاد بأن يقينياته ليست سوى أوهاام، وينتزع من "إهماله" الذي يلهمه عدم المبالاة بالخاص. الوعي السبدي بالفزع الأساسي الذي يجب أن يجبر غير المؤمن لا على اليأس، بل على البحث. كبير. إن عظمة الإنسان واضحة لدرجة أنه يهرب حتى من يؤسه. ممرقا بين الشعور بعدمه، ومحدوديته، وعظمته، يجب على الكائن أن يراهن، يراهن من أجل الله، إذا كان الأمر في الواقع مجرد حيلة تكتيكية، فكيف يمكنك المراهنة إذا لم تكن قد قمت بالاختيار بالفعل؟ - باسكال يحث محاوره على أن يصبح غيبياً. "من تعود نفسه على الإيمان يؤمن به... نحن إنسان آلي وكذلك العقول. الأدلة تقنع العقل فقط. العرف يثبت لنا أننا الأقوى والأكثر فظاظة." هذا الانضباط بالألة سيزيل موافقة العقل. وبمجرد سقوط آخر المقاومات الفكرية بفضل التجربة المعاشة لإيماءات الدين، سينتقل الإنسان من مستوى الذكاء إلى نظام آخر، نظام القلب، الذي سيؤدي إلى الالتصاق بالله ويجعله "يقول لا علم". بل عقيدة. إن اكتشاف التسامي من خلال القلب، كما من خلال الحب، يضمن حقيقة وجود من نسعى إليه، إذ لدينا غريزة لا نستطيع قمعها، وهي التي ترفعنا، كما "نعرف الحقيقة". ليس بالعقل فحسب، بل بالقلب أيضاً. "الله حساس القلب"، هذه هي القناعة النهائية التي ستجلب للمتحرر المهتدي فرح العارف والوعد بالأبدية. هذا الفرح الباسكالي يوازن ما يمكن أن يقدمه الاعتذار على أنه تكشف. بعد أن أزعج الكافر اللواتق من نفسه وعقله، وهذا دون وضع النقاش على أساس أخلاقي، ودون أن يتدخل مطلقاً معيار الخطأ المسيحي، يقوده باسكال بشكل غير محسوب نحو السلام والغبطة. إن الدقة التوضيحية لهذا مقياس الهندسة المسيحي، بعد كلمات بغيي، قوية جداً لدرجة أنها تلقي في الظلال بصورة باسكال المعذب وسجين الهاوية التي يفتحها تحت خطوات الشخص الذي يريده. أحضر إليه. إن استقامة نهجه وحماسة بلاغته كافية لإثبات صحته الروحية.

ولم يكن من أقل سمات عبقريته أن يعرف، كما هو الحال في لعبة التنس، أن يضع الكرة بشكل أفضل من أي شخص آخر، بطريقة "لا يوجد شيء أكثر من اللازم ولا ينقص شيء". لم يكذب بلوغ من العمر سبعة عشر عاماً، نشر بليز باسكال في بداية عام ١٦٤٠ مقالا عن المخروطات كشف فيه عن نفسه أنه تلميذ لجيرارد ديسارج (١٥٩٣-١٦٦٢) حيث ذكر النظرية التي تحمل اسمه: نقاط التقاطع الثلاث الجوانب المتقابلة للشكل السداسي المدرج في الشكل المخروطي تكون في خط مستقيم. وفي عام ١٦٤٢، قدم النموذج الأول لآلته الحسابية، والذي تم تقديمه رسمياً في عام ١٦٤٥ إلى المستشار بيير سيغير. تعد آلة الإضافة هذه واحدة من أقدم النماذج الأولية لآلات الحاسبة الميكانيكية. في عام ١٦٥٤، كتب أطروحته حول المثلث الحسابي وبدأ مراسلاته مع بيير دي فيرما (١٦٠١-١٦٦٥)، وهي المراسلات التي كانت أصل حساب الاحتمالات. حوالي عام ١٦٥٧، بدأ في كتابة كتابه عناصر الهندسة، والذي أُنقذ لابنته مفضلاً قصيراً منه من النسيان. في هذه العناصر، التي ألهمت جزئياً هندسة البورت رويال، نرى مظهرًا بديهيًا ينحرف بوضوح عن التقليد الإقليدي.

أفلسنا وفي كياننا، يلخص باسكال؛ نريد أن نعيش حياة خيالية في أفكار الآخرين، ولكي نفعل ذلك نسعى جاهدين للظهور. وبالتالي فإن الخيال يجعلنا غير مرئيين لأنفسنا بقدر ما يجعلنا غير مرئيين للآخرين. الذات هي ادعاء كاذب بين الآخرين، وتشارك بشكل كامل في مجتمع مصنوع من الخداع والترفيه. من خلال إبعادنا عن أنفسنا، يسمح لنا بأن ننسى محدوديتنا وغرور وجودنا، لكنه في الوقت نفسه يقطعنا عن الواقع وعن الله. صفوة القول إن كل مصائب البشر حسب باسكال تأتي من شيء واحد، وهو عدم معرفة كيفية البقاء بسلام في الغرفة. في الواقع، تصريحات باسكال انتقادية قبل كل شيء. عندما كان شاباً بالغاً، كان يتردد على الأوساط الأدبية والفلسفية، وعالم البلاط، والليل، والقمار... وبعد فوات الأوان، بدا له أسلوب الحياة هذا عبثاً، مفعماً بالحيوية بالتأكد، ولكنه خالي من المعنى، ناهيك عن كونه حياً من أن يطارده الموت. بالنسبة لباسكال، فإن معرفة أننا سوف نموت ونختفي - أو "محدوديتنا" بعبارة أخرى - هي مصدر للقلق بقدر ما هي مصدر للقلق والعدمية. لن يقتصر الأمر على أننا لن نعود كذلك فحسب، بل إن أي شيء نفعله لا يهم حقاً. للهروب من هذا الواقع، يميل البشر إلى الانشغال بشكل مفرط وإعطاء قيمة أكبر للأشياء أكثر مما لديهم بالفعل - على سبيل المثال العمل الذي يعتبر ضرورياً، أو العمل الموصوف بأنه ضروري، وما إلى ذلك. إنه بشكل أكثر عمومية ما يسميه باسكال "الترفيه": ما يجعلنا ننسى محدوديتنا، وعدمية الحالة الإنسانية، وغرور أي مشروع. وفي مواجهة هذا الميل إلى الهروب، والذي يمكن أن يتحول إلى اغتراب - إلى أشكال معينة من الإدمان على سبيل المثال - يدعو باسكال إلى قبول الذات والواقع. إن القدرة على البقاء في حالة راحة، والشعور بالملل بطريقة معينة، ليست سوى نتيجة لهذه الحالة الذهنية. الست خواطر باسكال تتضمن العديد من الوصايا الإيتيقية العلاجية للكثير من الأمراض التي تعاني منها حضارتنا المعتلة.

خواطر حول الزمن

لا نلتزم أبداً بزمن المضارع. نتذكر الماضي. نتوقع أن يأتي المستقبل بطيئاً جداً، كما لو كنا نريد تسريع مساره، أو نتذكر الماضي لنوقفه على أنه سريع جداً، ومن الحماسة لدرجة أننا نتجول في أوقات ليست لنا، ولا نفكر في الوقت الوحيد الذي ينتمي إليه. بالنسبة لنا، وعبثاً لدرجة أننا نفكر في أولئك الذين ليسوا شيئاً، ونهرب دون تفكير من الشخص الوحيد الذي يبقى. الحاضر عادة تؤلنا. نخفيه عن أعيننا لأنه يحزننا، وإذا سار لنا ندمننا على فراره. نحاول دعمه للمستقبل، ونفكر في ترتيب الأشياء التي ليست في وسعنا لوقت ليس لدينا ضمان لوصوله. دع الجميع يفحص أفكارهم. سنجدهم جميعاً مشغولين بالماضي أو المستقبل. نحن بالكاد نفكر على الإطلاق في الحاضر، وإذا فكرنا فيه يكون ذلك فقط للحصول على نظرة ثابتة للمستقبل. الحاضر ليس غايتنا أبداً. الماضي والحاضر هما وسيلتنا؛ المستقبل الوحيد هو غايتنا. وهكذا فإننا لا نعيش أبداً، ولكننا نأمل أن نعيش، وبما أننا نجهز أنفسنا دائماً لتكون سعداء، فمن المحتم أننا لن نكون سعداء أبداً. (الخواطر ٤٧-١٧٢).

غاية المراد باسكال يعترف بأن الانا محل كره من الآخرين نتيجة الإهواء البغيضة والانفعالات المتوترة. وهنا مرة أخرى، يقوم بنقد التمرکز حول الذات، أو الأنانية، أو، في سجل آخر، كراهية البشر. في الواقع، إنها تتناسب بشكل أكثر دقة مع نقد باسكال للخيال، هذه القوة الخادعة. على وجه التحديد، ليس ميلنا إلى التحديق في السرة أو حتى هويتنا العميقة هو ما قد يكون مكرهاً. تشير الذات إلى الصورة التي لدينا عن أنفسنا: الصورة التي لدينا عن أنفسنا والتي نظهرها في المجتمع. عندما نفكر في هويتنا أو متى يتعين علينا تقديم هويتنا علناً، فإن احترامنا لذاتنا وخيالنا يعملان معاً لتطويع انعكاس يتوافق مع رغباتنا وتوقعات المجتمع. نحن غير راضين عن الحياة التي نعيشها داخل

من عام ١٦٥٨ إلى عام ١٦٦٠، طور باسكال تقنيات تكامل أصلية في موضوع الدائري والتي ألهمت لابنته جزئياً. اللافت للنظر أن باسكال له آراء سياسية حول الجولة وعلاقة العدالة بالقوة ويرى حول هذا الموضوع أن العدالة بدون قوة لا حول لها ولا قوة. القوة بدون العدالة هي طاغية. بالنسبة لباسكال، القوة والأمر مرتبطان بالضرورة: أحدهما لا يغني عن الآخر أبداً. ومع ذلك، هناك فرق كبير بين الاثنين. فمن ناحية، يمكننا دائماً مناقشة ما هو عادل وما هو غير عادل؛ فكرة العدالة ليست واضحة أبداً. القوة، على العكس من ذلك، لا لبس فيها. فهو يفرض نفسه على الأضعف دون نقاش ممكن. إحدى النتائج المهمة لهذا المنطق هي فكرة أن القوة تأتي أولاً على العدالة. وبعبارة أخرى، فإن أولئك الذين يملكون السلطة قادرون على فرض قواعدهم، وعندما فقط يمكننا مناقشة هذه القواعد. ومن الناحية العملية، يلاحظ باسكال بسخرية أن المهيمين فرضوا مفهومهم للعدالة بالقوة - بما في ذلك عندما يمكن الحكم عليها بأنها غير عادلة على المستوى الأخلاقي أو السياسي. وهكذا، لعدم قدرتنا على جعل ما هو قوي فقط، جعلنا ما هو قوي عادلاً، يلخص الفيلسوف. فهاهي الأفكار المهمة التي تضمنتها خواطر باسكال؟

فكرة البداية

إذا كان علينا أن نعطي ثمانية أيام من الحياة، فيجب أن نعطي مائة عام. [الخواطر ١٥٩-٢٠٤]

شخص في زنزانة، لا يدري هل قضى حكمه، ولم يبق له إلا ساعة واحدة ليتعلمه، تكفي هذه الساعة إذا علم أنه قضى به لنقضه. ومن غير الطبيعي بالنسبة له أن يستغل هذه الساعة، ليس لمعرفة ما إذا كان الحكم قد صدر أم لا، بل للعب البيكيه. لذلك فمن الخارق للطبيعة أن الإنسان، وما إلى ذلك، إنها يد الله الثقيلة. وهكذا فإن غير الذين يطلبونه ليست وحدها تثبت الله، بل أيضاً عمى الذين لا يطلبونه. الخواطر (١٦٣-٢٠٠).

بليز باسكال... عشق الرياضيات واختراع الآلة الحاسبة

محمد عبدالفتاح

”

ونبع عباقرة - لم يبلغوا سن العشرين - وبرعوا في تقديم خدمات جليلة للبشرية واختراعات مميزة كان لكثير منها دور كبير في تغيير مسار الحياة المدنية والاقتصادية والاجتماعية. لكن ماذا عن حياة عباقرة تحت العشرين وكيف تربوا، وكيف عاشوا، وكيف بزغت مواهبهم، وكيف تحدوا الصعاب وتغلبوا عليها؟

“

هو واحد من العلماء القلائل الذين استطاعوا الجمع بين أكثر من علم في وقت واحد، فبفضل عبقريته الفذة التي نضجت منذ نعومة أظفاره استطاع العالم الفرنسي "بليز باسكال"، أن يلم بعلوم الفلسفة والرياضيات والفيزياء والأدب، وفي كل هذه المجالات قدم إسهامات كان لها بالغ الأثر في تقدم البشرية، وكان أبرز إنجازاته على الإطلاق هو اختراع الآلة الحاسبة التي ابتكرها وطورها قبل أن يتم عامه التاسع عشر.

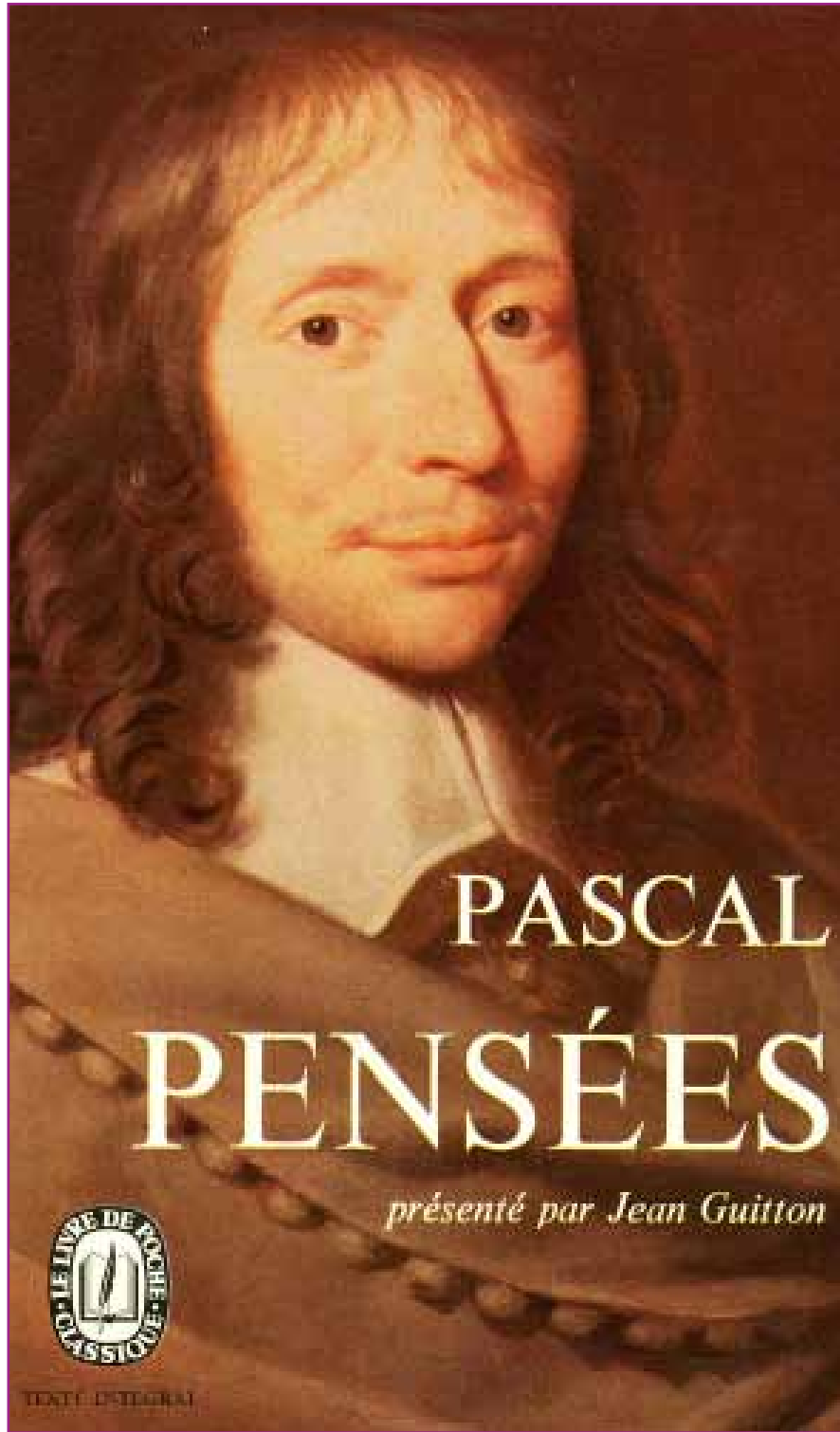
النشأة

ولد الطفل بليز باسكال في ١٩ يونيو من العام ١٦٢٣ في منطقة كليرموننت الفرنسية لأب ينتمي إلى عائلة برجوازية يدعى "إيتيان" يعمل قاضيا وتنتمي عائلته إلى نبلاء الثوب القضاة وكبار الموظفين الذين كانوا يتنافسون على السلطة مع نبلاء السيف "القادة والفرسان"، وعندما بلغ الثالثة من عمره توفيت والدته وتركته مع شقيقته في رعاية الأب.

وعندما شب الطفل قليلا برزت لديه عبقرية فذة لفتت إليه أنظار المحيطين به وكان أولهم والده، فقد كان كثير السؤال ودائما ما يختلي بنفسه ليفكر في أمر ما، وكان لا يتقبل الإجابات التي يحصل عليها بسهولة بل كان يفكر فيها كثيرا قبل أن يقتنع بها وإذا لم يقتنع يعيد السؤال مرات عديدة إلى أن يقتنع، وفي هذه السن المبكرة بدأ في إجراء بعض العمليات الحسابية البسيطة وأظهر اهتماما خاصا بالرياضيات. وأدرك والده أن ابنه عبقرى ويمتلك من الذكاء قدرا كبيرا، فحرص على أن ينمي هذا الذكاء الفطري.

أمراض نفسية

وحدث أن أصيب الطفل باسكال ببعض الأمراض النفسية فكان لا يستطيع مشاهدة الماء وتتأبه حالة هستيرية كلما شاهده وعجز عن النوم فكان يظل مستيقظا لأيام



وحساب التفاضل ويعد أحد مكتشفي حساب الاحتمالات بمعناه الصحيح القائم على أسس رياضية واضحة. واهتم بخصائص السلاسل العددية الصحيحة وبالترتيب العددي، والأعداد الطبيعية والأعداد المثلثية، ووضع ما يسمى مثلث باسكال وتطبيقاته العديدة المستخدمة حتى الآن. وهو تنظيم ثلاثي من الأرقام يكون فيه كل رقم مساويا لمجموع الرقمين المجاورين له من جهة اليمين، وعلى جانبه الأيسر في الصف الذي يكون أعلاه مباشرة.

طويلة، واحترار الأطباء في علاجه ما اضطر والده إلى الذهاب به إلى إحدى الساحرات ظنا من أن مسا شيطانيا قد مسه خصوصا أنه كان يبدو كالمجنون في كثير من الأحيان وأيضا لم تتمكن من علاجه. وسرعان ما شفي من تلقاء نفسه وعاد إلى طبيعته المحبة للعلم. بعد ذلك أظهر باسكال الصغير اهتماما بالغا بالرياضيات وقيل إنه فتن بها وقرأ فيها الكثير، خصوصا في الهندسة عندما كان في الثانية عشرة من العمر، وأصبح قادرا على حل أصعب المسائل الرياضية وأكثرها تعقيدا الأمر الذي أصاب والده بالذهول. استطاع في سن مبكرة أن يؤسس حساب النهايات،

وفي مجال الطبيعيات... رسخ باسكال مفهوم التجربة وكان يرى أن المسائل الطبيعية لا تحل باستنباط النتائج من مبادئ عامة، بل لابد من التجربة العملية وفي هذا الشأن عكف في مدينة "روان" على إعادة تجارب تورشلي إلى أن اكتشف الضغط الجوي بعد إجراء التجارب على مستوى سطح الأرض وعلى مستوى سطح البحر وأعلى أسطح المنازل والكنائس.

كما أدت أعمال باسكال المهمة في مجال ضغط السوائل إلى إيجاد المبدأ المسمى بقانون باسكال، وينص هذا المبدأ على أن السوائل الموجودة في الأوعية تنقل ضغوطا متساوية في جميع الجهات، كما يوضح العمليات التي تقوم بها ضاغطات الهواء، والمضخات الفراغية، والرافعات الهيدروليكية، ورافعات السيارات، ساعدت تجارب باسكال على إثبات أن للهواء وزنا، وأن ضغط الهواء يمكن أن ينتج فراغا، وبذلك أزال شكوك العلماء في ذلك الوقت في إمكان وجود الفراغ.

وقد توج باسكال جهوده العلمية في مجال التطبيقات الرياضية عندما ابتكر الآلة الحاسبة القادرة على إجراء الحسابات الأساسية الأربعة "الجمع والطرح والضرب والقسمة" في سهولة ويسر وبدقة بالغة لا تحتمل الخطأ، وقيل إن تفكير باسكال في هذا الاختراع كان بهدف مساعدة والده في إجراء الحسابات الخاصة بالضرائب، حيث كان يعاني من الإرهاق الشديد في إجرائها يدويا وكثيرا ما كان يقع في الأخطاء.

وتعتبر هذه الآلة إحدى أوجه تقدم العلوم التطبيقية وكانت اكتشافا مهما، ساهم في توصيل الإنسانية إلى الحاسبات الحديثة وما يمكن أن تصل إليه في المستقبل. وقد اكتشفها في مدينة "روان" سنة ١٦٤٠ وكان عمره وقتها "١٧" عاما وحصل على براءة اختراع بها. وقبل أن يصل إلى العشرين من عمره أصبح عالما معروفا ومهبا الجانب.

فكره الفلسفي

حول أفكار بليز باسكال الفلسفية والدينية كتب الروائي التونسي حسونة المصباحي يقول: "في العام ١٦٤٦، انكسرت ساق والد باسكال وهو يمشي في الشارع متوجها إلى حفل زواج. وخلال الأشهر الثلاثة التي أمضاها في المستشفى قرأ مؤلفات دينية عميقة حول قضايا المسيحية.

وبعد شفائه قدم لابنه النايغة تلك المؤلفات وطلب منه بإلحاح أن يقرأها. وبعد قراءته لتلك المؤلفات، بدأ باسكال يشعر أنه لابد أن يفهم الناس المسيحية من داخلها، وأن يتعمقوا في البحث عن ذلك. وهكذا اندفع من جديد يقرأ ويبحث، ويسجل خواطره بشكل محموم كما هي عادته دائما عندما يستغرق في العمل.

ولأن أمراضا مختلفة عادت تؤرقه وتعذب روحه وجسده، فإن بليز باسكال لزم البيت لا يبرحه أبدا. وهكذا انتهى الاتصال بالعالم الخارجي وهو في الثالثة والعشرين من عمره. وكان يقتصر على شرب السوائل. أما الأطعمة فقد كان يتقيؤها حالما تدخل بطنه. ومع ذلك لم يكن باسكال يتدمر أو يشتكي. كان يتألم ويتعذب صامتا. وكان الأطباء يحاولون العثور على الأدوية التي يمكن أن تخفف من ألمه ومن أوجاعه، غير أن جهودهم كانت تنتهي دائما بفشل ذريع. وعندما تشدد ألمه، كان بسكال يرفع يديه مضرعا لله، طالبا رحمته وغفرانه. وقد حمل مؤلفه الفلسفي الأول عنوان "الأبرشيات" وبه حقق نجاحا متقطع النظير. فقد نهافت الناس على شرائه وبيع منه أكثر من ١٠ آلاف نسخة. وظل بليز باسكال يصارع الأمراض التي تكالبت عليه صامتا رافعا يديه إلى السماء مضرعا، ومطلقا الصلوات وبين وقت وآخر كان يسجل في دفتره ما كان يمر بخاطره من أفكار. وتلك الخواطر والأفكار سوف تجمع فيما بعد، ليتكون منها كتاب "الأفكار" الذي لا يزال إلى حد هذه الساعة واحدا من تلك المؤلفات التي لا يمل الناس أبدا من قراءتها

عن الحوار التمدن

الفيلسوف باسكال وجد في العقل عظمة الإنسان وشقائه

مارلين كنعان

بليز باسكال الذي غيبه الموت في ٢٩ من عمره عام ١٦٦٢، هو أول من اخترع آلة كانت في أصل الآلات الحاسوبية وأجهزة الكمبيوتر. وهو أول من أتقن حساب الاحتمالات والتفاضل، واستخلص نظرية التساوي بين قائمتي المثلث وزواياه، ومعادلة منحني الدائرة الدوارة. وأنت أبحاثه وتجاربه على الفراغ والسوائل والضغط الجوي، إلى اختراع البارومتر وبعض معدات الأرصاد الجوية، ومقياس الارتفاع، وأولى حافلات النقل العام في باريس. وإن ننس فلا ننس كتابه الأشهر "الخواطر" الذي نشر للمرة الأولى عام ١٦٧٠ وهو عبارة عن شذرات أو تأملات في الفلسفة والدين وزعها على وريقات علقها بخيط رفيع من دون أن يكون ثمة ترابط بينها، وقد نقلها ببراعة إلى اللغة العربية في السبعينيات من القرن المنصرم إدوار البستاني ونشرت في سلسلة "مجموعة الروائع الإنسانية" فضلاً عن "الرسائل الإقليمية" الشهيرة التي ارتبطت بأحداث القرن السابع عشر في باريس والصراع العنيف الذي قام بين اليسوعيين الموالين للسلطة وجماعة بور رويال معلمي باسكال وعلى رأسهم أنطوان أرنو.

الغرض من هذه المناسبة ليس إذا أحياء ذكرى ولادة الفيلسوف فحسب، بل إعادة ربط ما قام به بتاريخ الأمتة التي عاش فيها، لا سيما مدينة كليرمون-فران وباريس، وتسليل الضوء على أعماله وأبحاثه المهمة التي ما زال تأثيرها قائماً حتى اليوم.

بليز باسكال الذي فقد أمه وهو في الثالثة من عمره والذي عانى من أمراض شتى، تمكن بفضل والده إتيان المهتم بالعلوم وصديق كبار علماء الفيزياء والرياضيات في عصره، وبفضل حنان شقيقته جيلبرت وجاكين، وشغفه بالمعرفة، من متابعة دراسته وأبحاثه العلمية واختلاطه على صغر سنه، بأهم العلماء والفلاسفة وعلى رأسهم ديكارتي الذي استقبله في باريس مرتين وعالم الرياضيات اللامع بيير دو فيرمات.

استشعار القلب

غير أن اهتمام باسكال بالفلسفة والعلوم لم يمنعه من الإيمان بالله، حتى لكأنه شعر برؤية الحضرة الربانية، فكرس العيد من كتاباته للدفاع عن الإيمان، وهو عنده "استشعار الله بالقلب لا بالعقل" ودخل في جدالات عقائدية عديدة قامت بين اليسوعيين وجماعة بور رويال التي انتمى إليها، ولعل نتاجه الفلسفي الذي تناول مواضيع امتزج فيها وجع الذات بالعالم ببراعة وبلاغة فريدة، لا سيما على مستوى الفعل الإنساني أو ما يعرف فلسفياً بالأخلاق والمنظومات القيمية، يطرح علينا سؤال راهبته وكيفية قراءته اليوم. إذ أن الغموض والابهام ما زال يلف بعض فكره الذي عبر عنه في نثار "خواطره" المفككة وغير المكتملة والتي لا تزال تعتبر من كتابات الكتب الفلسفية، علماً أن ناشره الأول أسقط من هذا الكتاب بعض الشذرات بناءً على نصائح مريدي باسكال وأصدقائه، لا سيما تلك التي

تحمل بعداً شكيماً أو التي تعلق بالجدال القائم بين جماعة بور رويال والسلطتين السياسية والكنسية. لكن هذا الكتاب على صعوبته، إن لناحية مبناه أو لناحية معناه، ما زال يأسر القارئ بعمق أفكاره ولو بقيت معظم إشكالياته على غوامضها معلقة، لم تجد لها حلاً. ولئن تحرك باسكال فوق رقعة واسعة من الموضوعات، فإن قراءته الممتعة التي تثير حماسة القارئ وتحمل معاني كثيرة، سمحت بتعدد تأويلات فقراته المبعثرة على وريقات هنا ومن دون تلاحم بينها. وقد جاء بعضها تاماً في وضوحه وروعته، وبعضها الآخر قلق التركيب مضطرباً. غير أن هذه التأويلات على كثرتها توافقت دوماً مع القلق المتعلق بالمعاني المعطاة لكلمات الفيلسوف ولتجميع شذراته المقتضية حيناً والمستفيضه أحياناً، والتي ما زال الدارسون منذ قرون يدافعون عن أطروحاتهم المتعلقة في كيفية ترتيبها وتقسيمها بما يتوافق مع ما أراد المؤلف. ولعل ليون برنشفيك الذي راجت طبعته في النصف الأول من القرن العشرين، بعد طبعة فيكتور كوزان في القرن التاسع عشر التي نشرت النص الأصلي كله، لم يقم نفسه في هذه الجدالات، بل اكتفى بتصنيفها وفق المسائل التي تثيرها، بحيث يتمكن الدارس من الوصول إلى بعض الخلاصات التي يمكن التنسيق بينها بطريقة منطقية.

من هذه الخلاصات تمسك باسكال الصادق بإيمانه، ولو عارض فهمه للدين والتفاسير المعتمدة من قبل اللاهوتيين والعلماء، هو المشهور برهانه الذي أكد فيه ضرورة الإيمان بالله. ومنها أيضاً تفكره في تحديد ماهية اليقين والحقيقة من خلال مساهمته في التفكير في فلسفة الرياضيات في كتاب بعنوان "في روح الهندسة وفن الاستمالة"، الذي لم ينشر إلا بعد قرن من وفاته.

بين الفلسفة



والهندسة

في هذا الكتاب تأمل باسكال في قدرة الإنسان على الوصول إلى الحقيقة من خلال الدفاع عن أطروحة مفادها ضرورة الانطلاق في العلم الهندسي، من مسلمات تم إثبات حقيقتها بالفعل. غير أنه سرعان ما أكد أن هذا الانطلاق شبه مستحيل. ذلك أنه لإثبات هذه المسلمات والتعريفات والاستدلال على صحتها، يجب على المرء الاعتماد على مسلمات أخرى. وهذا ما يعني بالضرورة استحالة الوصول إلى المبادئ الأولى. إن المسار المتبع في الهندسة من وجهة نظر باسكال هو إذا مسار مثالي قدر الإمكان، لأن المبادئ التي ينطلق منها عالم الرياضيات ليست كلها مبرهنة، غير أنه انطلاقاً منها يستطيع استنتاج مسلمات أخرى، مؤكداً بالتالي استحالة معرفة ما إذا كانت المبادئ والبيدييات الأولى صحيحة.

ما قاله باسكال في هذا الصدد يتوافق مع ما سبق ودافع عنه مونتاني في أن الوصول إلى اليقين بشأن المسلمات والبيدييات والاستنتاجات المتعلقة بها من خلال الطرائق والإمكانات الفكرية البشرية أمر مستحيل. فالإنسان "بما يملكه من الكينونة يحجب عنه معرفة المبادئ الأولى المولودة من العدم، واليسير الذي يملكه منها يستر عنه منظر اللانهاية". لذا نرى الفيلسوف يدافع عن فكرة أن هذه المبادئ لا يمكن فهمها من قبل الإنسان المحدود في كل شيء، إلا عن طريق الحدس أو القلب. ما يعني أن الحقيقة العلمية تؤكد ضرورة الخضوع لله في البحث عن الحقيقة وبأن الإنسان من دون الله في شقاء.

ومن الخلاصات البسكالية المهمة على الصعيد الفلسفي تحديده للإنسان "هذا العدم تجاه اللانهاية"، والتأمل في ماهيته بوصفه "عود قصب، وأوهن ما في الطبيعة". لكن هذا العود يتميز بالعقل، أي أنه يتمتع بقدرات فكرية وطاقت خلاقية. لكنه يملك بالإضافة إلى العقل جسداً فانياً وانفعالات شديدة. فهو قادر على أسنى الأفكار وأدنى الأحاسيس. غير أن العقل من وجهة نظر باسكال هو في الوقت عينه سر عظمة الإنسان وشقائه. فهو "عاجز عن المعرفة الأكيدة وعن الجهل المطلق. ما إن ينتهي إلى مستقرٍ ويحسب أنه تمسك به ورسى حتى يهتز ويهزّم". من هذه الزاوية كان دفاع الفيلسوف عن الشعور "لأن العقل برأيه، يعمل ببطء وهو دائم الاستطال على مبادئ يجب أن تكون حاضرة أبداً، وهي من الكثرة بحيث أنه يخمد ويضل لقصوره عن استحضارها جميعاً. أما الشعور فشأنه غير هذا، إنه يعمل فوراً، وهو أبداً على أهبة العمل، فيجب إذا أن نضع إيماننا في الشعور". ذلك أن القلب حججه التي لا يعرفها العقل "من هنا كان اهتمامه أيضاً بالتفكير في ماهية المخيلة "هذا الجزء الخلاب في الإنسان"، في زمن العقلانية، ومحاولة نبذها للحرب قائلاً: "لماذا تريد أن تقتلني، عجباً! ألا تقطن في الضفة الأخرى؟ لو كنت تقطن في ضفتي لكننت سفاحاً ولسكان قتلك على هذه الصورة عملاً ظالماً. لكن، بما أنك تقيم في الضفة الأخرى لذلك أنا مقدم وعملي عادل".

لا شك أن كتابات باسكال الأدبية والفلسفية والعلمية تعد واحدة من الروائع والمعالم في الفكر والأدب الفرنسيين والعالميين، ولعلها بحسب الناقد سانت بوف من أفضل ما كتب في اللغة الفرنسية، هي انتفاضة في وجه العقلانية المتشددة والمادية المطلقة والورع الأعمى. ولعلها على غوامضها ما زالت تخاطب عقول كثيرين وقلوبهم، ليس فقط على الصعيد النظري، بل على الصعيد العملي، إذ لم يكتف الفيلسوف بالحديث عن أفكاره ومبادئه، بل عاشها حتى الغفلة.

عن الاندبندت عربية



manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

عزى

عزى

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
غادة العاملي
رفعة عبد الرزاق

منارات

طبعت بمطابع مؤسسة للإعلام
والثقافة والفنون

باسكال.. فيلسوف السعادة

إميل أمين

”

لا نغالي إن قلنا إن كتابات بليز باسكال (١٦٦٣-١٦٦٢) أسهمت بقوة في إرساء مسارات التنوير ومساقات العقلانية في أوروبا أوائل القرن السابع عشر. وعلى رغم أنه لم يعيش أكثر من تسع وثلاثين سنة، إلا أنه أمضاها في خضم نزعة متنامية من الشك الفلسفي، باحثاً عن السعادة الحقيقية، متنبهاً لحاجات الفقراء، قلقاً على الدوام، تجذبه "آفاق جديدة وإضافة إبداعية يوماً تلو آخر". وفي مدينة "كليرمون - فزان" بفرنسا، كان مولد بليز باسكال، حيث عاش حياة قصيرة لكن مفعمة بالأحداث والانفعالات، فقد رحلت والدته وهو بعد في الثالثة من عمره، تاركة وراءها زوجاً قاضياً ومثقفاً رفيع المستوى المعرفي، ولاسيما في مجال علم الرياضيات، وثلاثة أطفال تبلغ أكبرهم ست سنوات، وكان بليز أصغرهم. واهتم الأب بتعليم صغاره تعليماً راقياً متميزاً، وبدأ نبوغ باسكال مبكراً وخاصة في علوم الرياضيات والهندسة، التي جذب الأنظار تميزه فيها منذ بلغ الحادية عشرة من عمره.

”

نعم الرياضيات

وأراد الأب أن يصرف باسكال الصغير عن الانغماس الكامل في دراسة الرياضيات، وأن يتفرغ لدراسة اللغتين اليونانية واللاتينية، ولكن الفتى الذي قرأ كتاب "العناصر لإقليدس" وهو في الثانية عشرة من عمره، مضى منشغلاً بشكل نهم منذ عام ١٦٣٩ بدراسة قضايا رياضية متصلة بالدائرة والمخروط والكرة والأمكنة الهندسية لنقطة متغيرة. وفي هذا السياق، يمكن اعتبار باسكال مؤسس العلم الخاص بحساب الاحتمالات، كما أنه يعتبر مخترع إحدى أوائل الآلات الحاسبة، التي قادت إلى الأنساق الحديثة المتوافرة في أيدينا اليوم. وإلى جانب الهندسة متناهية الصغر، عالج باسكال أيضاً الهندسة الإسقاطية، كما تناول المخروطيات، وبعدها القطاعات.

وكان "إتيان باسكال"، والد بليز المهتم بالعلوم وصديق كبار علماء الفيزياء والرياضيات في عصره، الركيزة الأساسية التي ساعدت في ظهور عبقرية ابنه، إضافة إلى دعم شقيقتيه جيلبرت وجاكلين، ما وفر له أجواء من الهدوء النفسي أُنشِع خلالها شغفه بالمعرفة، وسمحت له بمتابعة دراساته وأبحاثه العلمية.

كما اختلط بليز باسكال مبكراً بعلماء فرنسا ومفكرها وفلاسفتها الكبار في زمنه، وعلى رأسهم رينيه ديكارت، الذي استقبله في باريس مرتين، إلى جانب لقاءه مع عالم الرياضيات اللامع بيير دوفيرمات.

عامية، الذين ملؤوا الأرجاء في ذلك الزمن. ولم يكن باسكال مفكراً ساكناً في برج عاجي، منعزلاً عن زمنه وشعبه، بل كان متنبهاً للمشاكل الاجتماعية إلى درجة أنه "لم ينغلق أبداً عن الآخرين" ولا حتى في مرضه الأخير.

ومن الإنجازات العملية يذكر لباسكال أيضاً أنه قد ابتكر أول شبكة مواصلات عامة في التاريخ، وكان ذلك في العاصمة الفرنسية باريس عام ١٦٦١.

إشكالية المفارقات

واهتم باسكال بإشكالية المفارقات التي تتناوب الحالة البشرية طالما بقي الإنسان في هذه الحياة، إذ يذكر دوماً أن هناك "تفاوتاً لا يطاق بين إرادتنا اللامتناهية في أن نكون سعداء وأن نعرف الحقيقة من جهة، وعقلنا المحدود وضعفنا الجسدي الذي يؤدي إلى الموت في نهاية المطاف من جهة ثانية، وهو الضعف نفسه الذي يهددنا في كل لحظة طالما بقينا أحياء". وفي هذا السياق يتساءل باسكال: لماذا لا يمكن للإنسان أن يبقى وحيداً في نفسه؟ ويجيب بأن السبب مرده "بؤس الإنسان وعدم اليقين حول مصيره، وهما أمران لا يطاقان بالنسبة إليه".

وهكذا يبحث المرء عن طريقة لكي يلهي نفسه، ومن هنا كذلك تأتي المقولة المشهورة "البشر يحبون الصخب والحركة"، ويقوم ذلك من خلال العمل والعلاقات العائلية والصدقات، فيختبر هكذا انطباعه و فراغه، وكذلك مشاعر الملل والحزن، بل وربما اليأس أحياناً.

بعد روحي

وتقودنا رؤية باسكال هذه لتساؤل عميق وجذري عن فكرة ما يسميه "الهاوية اللامتناهية" التي تخشاها النفس البشرية، وما إذا كان الأمر صحيحاً من عدمه؟ يظهر هنا باسكال بإيمانه الخلاق، معتبراً أن هذا بالفعل حال النفس البشرية، تلك التي لا يمكن ملؤها إلا بشيء لامتناه وثابت، أي ببعد روحي. ومن هنا ندرك لماذا اعتبر باسكال أن الإنسان هو مستلهم جميع الأمور، ودودة الأرض الضعيفة، مستودع الحقيقة، ومجرى تصريف الشك والخطأ، مجرد الكون ونقايته أحياناً.

إنها تناقضات لا يمكن للعقل البشري أن يوفق بينها، حيث عظمة الإنسان وبؤسه واضحان للغاية، وعبر سطور كتابه "الخواطر" تخلص إلى أنه في الإنسان "هناك مبدأ عظمة كبير، كما أن هناك مبدأ بؤس كبير أيضاً".

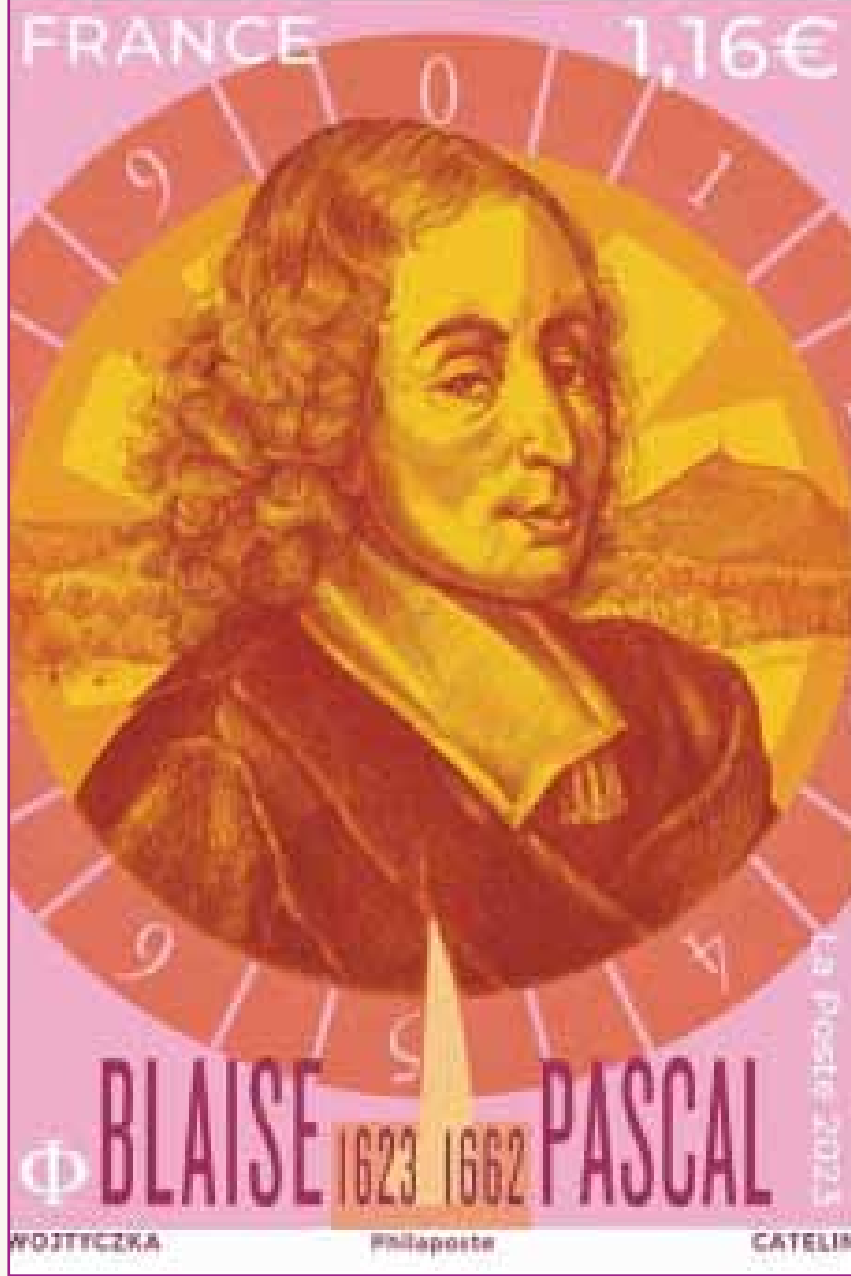
عقل مبدع

كانت سنوات باسكال الأخيرة درساً كبيراً ومهماً لكل إنسان صاحب روح خلاقة، ففي السنوات التي امتدت من ١٦٥٩ وحتى ١٦٦٣، أي موعد وفاته، أصبح باسكال رجلاً مسلماً، ولم يعد ينخرط في مخاضات الجدل، ولا حتى في مواقع أو مواضع الدفاع عن النفس والسعي إلى الدفاع عنها وتبرير مواقفها. وفي هذه الفترة من حياة باسكال، يورد أحد كتاب سيرته قوله: "إذا كان الأطباء يقولون الحقيقة عن إمكانية شفائي، وسمح الله لي بالشفاء من هذا المرض، فأنا مصمم على ألا تكون لدي أي وظيفة أخرى أو اهتمام آخر لبقيّة حياتي سوى خدمة الفقراء".

وفي أغسطس من عام ١٦٦٢، اشتد المرض على باسكال، حتى عجز عن الحركة تماماً، فطلب نقله إلى المستشفى، ولكن الأطباء أكدوا خطورة حالته واستحالة نقله، ولهذا ظل يعاني ليومين كاملين أمام العجز التام لأطبائه المعالجين، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة صباح يوم التاسع عشر من الشهر نفسه.

رحل باسكال وهو لم يكمل عقده الرابع، ولا يدري المرء، ما الذي كان يمكن أن يقدمه هذا العقل المبدع لو طال به الزمن بضعة عقود أخرى، ومع ذلك فقد ترك إرثاً مخلصاً، روحياً وعلمياً، سيبقى علامة فارقة في الفكر الإنساني على مر التاريخ.

عن الاتحاد الإماراتية



حدود الحقيقة

في وجه العقلانية المتشددة والمادية المطلقة والتزمت الأعمى.

السعادة الحقيقية

وفي الذكرى المؤية الرابعة لمولده، وتقديراً من حضرة الفاتيكان لأهمية باسكال مفكراً وفيلسوفاً، أصدر البابا فرنسيس رسالة رسولية عنونها "عظمة الإنسان وبؤسه" (Sublimitas et miseria hominis). وفيها وصف فرنسيس باسكال بأنه "رفيق سفر يرافقتنا بحثاً عن السعادة والحقيقة"، ولاسيما أن حياته تدفعنا في إطار تحفيز عالمنا المعاصر، وخاصة نوي الإرادة الصالحة، للبحث عن السعادة الحقيقية.

وعلى رغم أن باسكال كان معجباً بحكمة الفلاسفة اليونانيين القدماء إلا أنه ظل يؤكد على أن العقل وحده لا يمكن أن "يحل المسائل الأسمى والأكثر إلحاحاً"، وبسرعة برزت أعمال باسكال في فرنسا قبل ظهور فترة الحداثة، وانطلاق شرارة التنوير، وقد تركت كتاباته أثراً على ما تلاها من نقاشات ولاسيما في عالم الأخلاق. كما لعب دوراً كبيراً وفعالاً في الدفاع عن الإيمان بوجود الخالق، أمام الملحدين الفرنسيين خاصة، والأوروبيين